
كل الرسل
في الكتاب المقدس
www.christianlib.com
بقلم
هربرت لوكير
دار الثقافة

يعقوب بن زبدي
الرسول الذي لُقِّب بالكبير

يأتي هذا الرسول قبل الرسول الآخر الذي يحمل نفس الاسم والذي تأملنا فيه للتو. في كل القوائم الأربع، فإن يعقوب، بن زبدي، يذكر دائماً بين الثلاثة المذكورين أولاً. والإشارة له تأتي مجزأة «إن أدوات دراسة شخصيته نادرة، وعلينا أن نستند إلى معرفتنا بالإنسانية عموماً لرسم صورة لأول شهيد رسولي في الإيمان المسيحي». ربما لا يعاني رسول آخر من فترات الصمت في حياته أكثر من يعقوب. فلو أن الأناجيل أعطتنا قصة شاملة لحياته لحصلنا على سجل رائع لهذا الرسول الملقب «ابن الرعد» ومع أنه كان واحداً من الأصدقاء المقربين من المسيح، ففي حالات نادرة فقط نرى يعقوب يقوم بدور بارز واضح المعالم حتى يطيح نصل السيف بحياته في ومضة من الصمت البليغ.

يقول دانيل ماكلين: «إنه يمر أمامنا على شكل ظل صورة وليس كصورة فوتوغرافية، والإطار الخارجي للصورة واضح بالدرجة الكافية التي تجعل هويته في الصورة المرسومة واضحة المعالم بحيث يمكن التعرف عليها، ولكن ليس بالتفاصيل الكافية التي تجعلنا قادرين على إدراك قسمات الوجه التي تعبر عن الشخصية بوضوح». يخبرنا يوحنا، أخو يعقوب، في ملحوظة إضافية ملحقة بإنجيله أنه لو أن كل أعمال يسوع، وكل ما يرتبط به قد كتب بالكامل، فإن العالم نفسه لن يسع الكتب المدون بها هذه الحقائق والتفاصيل (٢١:٢٥). دعنا نحاول أن نستجمع معاً الإشارات التي لدينا عن تاريخ هذا التلميذ الذي ختم الإنجيل بدم قلبه.



١- اسمه

كما سبق أن ذكرنا في الجزء الخاص بسميه «فإن الاسم يعقوب James، يرجع لـ يعقوب (Jacob) الجد العبراني، وهو لا يزال اسماً شائعاً لدي اليهود. فتحول Jago في أسبانيا وJacques في فرنسا وعاد للظهور في عمل أدبي إنجليزي بعنوان حروب وأغاني Jacobite اتخذ الاسم أشكالاً متقاربة من اللفظ يعقوب في الأقطار الغربية. واتخذ الاسم مستقراً له في بريطانيا في القرن الثاني عشر، عندما بدأ الحجاج يزورون ضريح القديس يعقوب بن زبدي، في كومبوستيلا بأسبانيا. في ذلك الوقت كان الاسم أكثر شيوعاً في اسكتلندا. ومع ارتقاء جيمس ستيوارت للعرش كأول ملك على كل من انجلترا واسكتلندا، بدأ الاسم يزداد شعبية في انجلترا، في القرن السابع عشر. ولكن خلال القرن التاسع عشر، أصبح الاسم عتيق الطراز،

عندما أُستخدِم كاصطلاح عام للدلالة على من يقوم بالخدمة. أما الآن فإنه أكثر شيوعاً من أي وقت مضى.

٢- عائلته

كان يعقوب ابناً لوالدين تقيين، زبدي وسالومة، اللذين كانا يعيشان على شاطيء بحر الجليل، مكرسين كدهما وتقواهما ومعلمين لولديهما باذلين جهداً أميناً ليتصفا بالرجولة الحقة. من المرجح أن زبدي هو نفس الرجل الذي يذكره اليهود في تلمودهم تحت اسم «المعلم يعقوب بن زبدي» وكانت أمه المسماة مريم، تلقب باسم سالومة، والتي كانت على الأرجح قريبة لمريم، أم ربنا. وطبقاً للتقاليد اليهودية كان يطلق على الأقارب المقربين أسماء الأخوة والأخوات. وهكذا فإن يعقوب قد يكون من الأقارب المقربين ليسوع نفسه (مت ٥٦:٢٧، مر ٤٠:١٥، يو ٢٥:١٩).

يقول بعض المفسرين إن سالومة كانت أختاً لمريم العذراء، فإن كان الأمر كذلك، فيمكننا أن نفهم محاولتها أن تضمن لولديها، موقع الصدارة في ملكوت المسيح. يقول المثل: «الدم أكثر كثافة من الماء». وحيث أن يعقوب ويوحنا كانا ابني خالته فأنهما أولى من غيرهما بالحصول على مركزين متقدمين في الملكوت. ولكن بغض النظر عن هذه الرغبة الطموحة، فإن لسالومة شخصية يُعتدى بها. فنحن نجد العديد من الدلائل على صلتها الشخصية بالمعلم واحترامها له. لقد كانت تؤمن تماماً بملكوته الآتي (مت ٢٠:٢٠).

ونظراً لولعها بابنيها، فقد أظهرت رغبة عميقة لصالحهما، ولكن إيمانها بمستقبل المعلم نفسه كان راسخاً، وكان لديها إيمان كذلك بقوته على العطاء وتقديم العون، كانت واحدة من النساء اللواتي خدمنه من أموالهن، واتبعنه في رحلته الأخيرة إلى أورشليم. وفي أحلك ساعات تجربته، «كانت عند الصليب»، كواحدة من النساء المتعاطفات معه والباكيات، واللواتي شهدن آلامه النهائية. وقد جاءت أيضاً لتدهن جسده في صباح يوم القيامة (مر ٤٠:١٥، ١:١٦). كانت سالومة امرأة جريئة، ومخلصة، وعلى استعداد، كولديها، أن تسلم كل شيء للمسيح. ونحن نكرمها كالأم الجديرة بالاحترام لولدين جديرين بالاحترام، يعقوب ويوحنا، وهي شريكة لهما في إخلاصهما. وبما أن الأناجيل عادة تضع اسم يعقوب قبل اسم يوحنا، وتشير إلى الأخير بالقول «أخو يعقوب» فيُستنتج أن يعقوب كان الآخ الأكبر (مت ٢١:٤، مر ١٩:١، لو ١٠:٥).

أما عن زبدي، زوج سالومة، وأبو يعقوب ويوحنا، فهو لا يظهر سوى في قصة الإنجيل في المناسبة التي تركه فيها ولداه ليتبعا يسوع. فإما أنه مات بعد أن تتلمذ ولداه بوقت قصير، أو وهو الأرجح، فإنه كيهودي تقليدي، لم يشاركهما الإيمان بيسوع، كما أنه لم يوافق على التلمذة التي اختاراها.

ربما كان يسوع يشير إلى زبدي ومقاومته له عندما تحدث عن ترك الأم والأب لأجله (مت ٣٧:١٠، ٢٩:١٩)، كان الأمر مختلفاً بالنسبة لسالومة، فقد كانت من أوائل الذين آمنوا بيسوع، وكانت متفقة مع ولديها في قرار اتباعهما له وكما فعل ابناها، فقد سلمت كل شيء للمسيح.

٣- حرفته

من التقاليد اليهودية أن يمتهن الأبناء نفس مهنة الآب، كما حدث بالنسبة ليسوع حين أصبح نجاراً كما كان يوسف، أبوه بالتنشئة. كان زبدي صياداً للسمك على بحر الجليل ومن الواضح أنه كان رجلاً ذا مركز اجتماعي مرموق كما نفهم من حقيقة أنه كان قد استأجر خداماً ليساعدوه في مهنته الخاصة بصيد السمك (مر ٢٠:١). ثم أن هناك حقيقة أنه كان يمتلك منزلاً في أورشليم وكان يعرف عنه أنه كان صديقاً لرئيس الكهنة، قيافا، وأهل بيته،

ومن الواضح أن زبدي كان معتاداً على زيارة بيت رئيس الكهنة (يو ١٨: ١٥-١٦).

امتهن يعقوب ويوحنا مهنة والدهما الذي لم يترك إدارة حرفته تماماً لولديه أو خدمه. فنحن نراه يصلح شباكه مما يوضح سر نجاحه. كان يقوم بالإشراف بنفسه على أدوات الصيد لكي تكون في حالة جيدة، وكانت كثرة السمك مكافأة الأب وولديه على عنايتهم الدؤوبة بالقوارب والشباك. وكان يونا من بيت صيدا، وولداه، أندراوس وبطرس، صيادي سمك بالمثل في الجليل، وكان يبدو أنه كان هناك نوع من الشراكة بين يونا وزبدي في عمليات الصيد.

يظهر يعقوب في البداية في السجل المقدس وهو يساعد بطرس في جمع السمك الكثير بسبب المعجزة التي أجراها المسيح. ونحن متأكدون من حقيقة أنه عندما قدمت دعوة المعلم لهم ليصبحوا «صيادي الناس» استجاب هؤلاء العاملون الكادحون في البحر بكل خفة ورشاقة. وكان كل من يعقوب ويوحنا، ابني زبدي، من بين أولئك الذين أظهر يسوع لهم نفسه مرة أخرى بعد قيامته حيث أنهم كانوا قد عقدوا العزم على العودة لحرفة الصيد (يو ٢١: ٢).

٤- تلمذته

منذ حوالي مائة سنة، قدم فريدريك ادواردز في مؤلفه الرائع «هؤلاء الاثنا عشر»، المقدمة التالية للفصل الذي خصصه لـ «يعقوب بن زبدي»:

مرت ١٧ سنة فيما بين الدعوة التي تلقاها يعقوب من المعلم واستشهاده لأجله. والتاريخ الذي لدينا عنه يعد كاملاً تقريباً فيما يتعلق بثلاث سنوات منها، على الرغم أنه صامت، أو شبه صامت، إزاء الـ ١٤ سنة الأخرى. إنه أول الذين درسنا تاريخهم، ولسنا بحاجة لنتخيل ما مر به من أحداث في حياته، ويمكننا أن نكون منصفين تماماً إزاءه بمجرد اتباع السجل المكتوب».

من السجلات المتفرقة يمكننا أن نقول إن القصة الحقيقية لحياة يعقوب بدأت ذلك اليوم عندما رأى يسوع يعقوب ويوحنا وهو يمشي على ضفاف بحر الجليل، مع أبيهما، يصلحان شباكهما وخاطب الأخوين الكادحين بالقول «هلم ورائي» ثم نقرأ أنه للوقت، أو في الحال، وبلا تردد أو توجيه أسئلة، تركا قاربهما وأبيهما واتبعاه (مت ٤: ١٨-٢٢).

نحن لا نعرف الحادثة الأصلية التي اقتادت يعقوب لمعرفة الرب والإيمان به، كما لدينا في المقدمة الأولى ليوحنا، عن كيفية معرفة أندراوس وبطرس به. فالدعوة التي وجهت إليه عند البحر لم تكن دعوة لقبول المسيح، بل أن يتبعه في خدمة رسولية، والأناجيل صامتة بشأن تجديده، ربما حدث عندما ترك بطرس وأندراوس ويوحنا ما يقومون به من أعمال الصيد ليسمعوا يوحنا المعمدان. وكنتيجة لتبشيره توثقت صلتهم الروحية بحمل الله. وربما، عند عودتهم إلى الجليل قدموا ليعقوب رواية حماسية بكل ما سمعوه ورأوه، ونتيجة لتأثره البالغ بشهادتهم، كرس حياته ليسوع وكان ينتهز الفرصة ليعلن ولاءه له علانية - وقد حدث ذلك بينما كان يسوع ماشياً في طريقه (لو ٥: ١-١١).

فصيادو السمك الأربعة الذين أطاعوا الدعوة لاتباع يسوع، ظلوا أصدقاء حميمين له، وقد صنفوا في ثنائيات أولا طبقاً لأعمارهم - أندراوس ويوحنا، الاثنان الأصغر سناً، وبطرس ويعقوب، الاثنان الأكبر في السن.

وعندما كانوا يرتحلون مع يسوع، أصبحت الدوائر واضحة في زمرة الرسل، كانت الدائرة الخارجية محجوزة ليهوذا الإسخريوطي، الخائن. وكان سبعة رسل يشغلون الدائرة الأولى، ثم تأتي الدائرة الثانية لتضم ثلاثة رسل، مع أندراوس الذي يفوته الانضمام إلى الثلاثة بفارق

طفيف، أما عن الدائرة الداخلية المقربة، فإن بطرس ويعقوب يستبعدان منها، ويبقى فيها يوحنا وحده مع سيده. في إنجيل متى ولوقا، يأتي أندراوس في المرتبة التالية بعد بطرس، ومن الواضح أن ذلك يرجع لتميزه الأساسي في كونه أخاً لسمعان بطرس. وفي إنجيل مرقس، يحتل يعقوب المركز الثاني، ويظل الترتيب دائماً هكذا «بطرس ويعقوب ويوحنا». ويتحدث ماكنتوش ماكاي عن يعقوب بأنه «الرجل الذي كان يشغل المقعد الخلفي» وهذا وصف ينطبق على ما آل إليه ولكن هذا ليس بالتأكيد الكيفية التي بدأ بها.

٥- رسوليته

إن الرفقة والشركة مع المعلم قد أعدت يعقوب ليكون رسولاً، وقد أصبح واحداً من الدائرة الضيقة حيث كان وثيق الصلة، بكل الأحداث التي مر بها المسيح.

كان على الاثنى عشر ككل أن يكونوا شهوداً ليسوع في العالم بعد صعوده، ولأنه كان من واجباتهم المحددة أن يقدموا إلى العالم رواية أمينة عن كلمات وأقوال معلمهم، وصورة صادقة عن شخصيته، وانعكاساً حقيقياً لروحه» فقد حاول المسيح أن يجعلهم مرايا لامعة لتعكس صورته.

كان المسيح أكثر اهتماماً بالتأهيل للمنصب الرسولي منه بكرامة هذا المنصب كان يعلم أن اكتساب هذا التأهيل يأتي في المقام الأول، وهكذا ولمدة ما يقرب من ثلاث سنوات، حاول أن يعد يعقوب والباقين عن طريق التهذيب والتعليم. فلم يكن لسبب اعتباطي أن المسيح سمح بمرور سنة قبل أن يأذن ليعقوب بأن ينتقل من طور التلمذة إلى المركز الرسولي. كان على «ابن الرعد» هذا أن يتعلم أنه كلما سمت الدعوة صعب التدريب المناسب لها. فالرسل لا يولدون بل يصنعون: «فأجعلكما». في كثير من الأحيان، يشتهي الناس منصباً لا يكونون مستعدين له، لمجرد أنهم أنهوا فترة التدريب. ولذا فعندما اتبع يعقوب يسوع وخدمه، تعلم وأصبح عاملاً ليس لديه ما يخجل منه:

تغيير الاسم

عندما تخرج يعقوب وأخوه يوحنا من مدرسة الرسل، وأسماهما يسوع، بوانرجس أي ابني الرعد (مر ٣:١٧). وبنفس الطريقة، كما نرى فيما بعد، أنه أسمى سمعان بطرس، ما مغزى اللقب «بوانرجس»؟ يختلف العلماء بشأن المعنى الحقيقي لهذا الاسم. فهل كان مثل هذا الاسم الغريب سجلاً لحياتهما الماضية؟ هل كان هذان الأخان كصيادي سمك، سريعي الغضب، متهورين، يستسلمان كثيراً لنوبات غضب مفاجيء؟ هل كانا معتادين على استخدام كلمات قوية لا تتماشى مع أفكارهما ولا مع المناسبة التي استدعت استخدامها؟ هل أظهر هذا الاسم الجديد، أو اللقب أنهما كانا ذا مزاج ناري يتسم بالاندفاع؟ بما أن يسوع علم ما كان في الإنسان، فقد عرف كل ما يتعلق بالمزاج الطبيعي ليعقوب، ولم يعمل على استئصاله، بل على تقديسه. لقد روض شلالات نياجرا في يعقوب ليجعله قوة دافعة في ملكوته.

يقول بعض الكتاب إن يعقوب ويوحنا كانا يمتلكان بلاغة عاصفة، ويقول آخرون إنهما كانا رجلين لهما أصوات حادة النغمة.

ومازال آخرون يصرون على أن بوانرجس تعبير يصف المزاج الناري، الذي يعلن عن نفسه في الغيرة الآكلة. يقول وليم كيف، الذي كتب عام ١٨٤٠ كتاباً عن «حياة الرسولين» قال فيه:

«من المرجح أن التعبير قد لا يدل على أكثر من أنهما عموماً سوف يصبحان ذا مركزين رئيسيين وبارزين في هذا المشهد الجديد، مشهد تقديم الإنجيل، أو عهد الكرازة. بأن يطلق عليهما صوت يزلزل «لا الأرض فقط بل السماء أيضاً» (عب ١٢:٢٦)، ويتفق هذا تماماً مع الأهمية القوية

للكلمة التي تعني زلزالاً (حج ٢:٧)، أو اهتياجاً قوياً يجعل الضوضاء مثل الرعد.

ولذلك يمكننا أن نقول إنه كان ليعقوب غيرة آكلة، وحب قوي لمعلمه، لابد أنه عبَّر عن ذاته في صوته ووجهه الذي كان يتوهج. لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً بتراخ. ولذا فقد دافع عن قضية سيده باندفاع لم يكن له سوى ند واحد بين الرسل. يمكننا أن نعتبر ياهو هو المقابل ليعقوب في العهد القديم وهو الذي قال: «تعالوا... انظروا غيرتي للرب» ثم اقتلع بيت أخاب، واكتسح عبادة البعل من الأرض.

وبنفس الطريقة، فربما استخدم يعقوب صوته الجهوري كالرعد كسلاح للإصلاح، وقد حول المسيح بالتدريج غيرته العاصفة إلى قوة موجهة لكي يحتفظ بها لأسمى خدمة فعالة. والمعلم الذي قيل عنه «غيرة بيتك أكلتني» (يو ٢:١٧)، كان يغذي غيرة تلميذه يومياً.

كانت قوة يعقوب الذهنية، وحماسه الروحي، ونشاطه البدني كانت جميعها تحت تصرف سيده، وقد نتج عن ذلك أنه احتل مكانة بارزة في الكنيسة في أورشليم، وجلب على نفسه غضب ملك وقد أدى ذلك إلى استشهاده.

يعلمنا الرسول بولس أنه «حسنة هي الغيرة في الحسنى». وقد كان يعقوب واحداً ممن تأثروا بالغيرة فيما يتعلق برسالة المسيح، على الرغم من أنه في بعض الأوقات لم تكن غيرته القوية حسب المعرفة. تعد الغيرة بحق فضيلة نبيلة وممتدحة، ولكن إذا لم يمكن التحكم فيها أو توجيهها في الاتجاه الصحيح، فإنها تصبح رذيلة. إن بعض أسوأ الأفعال في تاريخ الكنيسة كانت تنشأ نتيجة لغيرة خاطئة. كان ليعقوب كقديس جاد وغيور، أخطاؤه – وهي أخطاء نابعة غالباً من فضيلته. فإلى جانب نقاط قوته كانت هناك نقاط الضعف – وهي النقائص الخاصة به.

التعصب الأعمى

استطاع جوزيف اديسون أن يكتب عن «التحزبات المخلصة الواضحة المعالم بشكل طبيعي بالنسبة للرجل الإنجليزي الأصيل». ولكننا لا نستطيع أن نقول أن تحزب العبراني الأصيل، يعقوب، كان ذا طبيعة مخلصة. وكمحب مخلص في حبه كان يمكن أن يكون مغالياً في كراهيته، ونفس حدة انفعالاته جعلت غضبه وعدم تسامحه، وتعصبه الأعمى أكثر توهجاً. فالتحيز والميول حادة النزعة، والتي لا يتسم بها يعقوب وحده، بل يتسم بها يوحنا أيضاً، يبدو أنها ذات طبيعة متقدة وعنيفة أكثر من بقية الرسل. ويمكن استنتاج ذلك مما حدث عندما قرر يسوع الذهاب إلى أورشليم وأرسل بعض تلاميذه كرواد لإعداد طريقه. وعندما أتوا إلى السامرة، تم رفضهم بطريقة غير متحضرة ورفض أهل السامرة استضافتهم. ولاشك أن النزاعات المتأصلة بين السامريين واليهود، بالإضافة إلى ما يبدو أنه استخفاف بجبل جرزيم (مكان العبادة المعترف به لدى السامريين)، من قبل يسوع حين مر به للسجود في أورشليم، مما دفعهم لعدم تقديم أي نوع من كرم الضيافة أو الترحيب بيعقوب ويوحنا، وهو ترحيب كانوا يظهرونه لجميع المسافرين.

فالسامريين لم ينكروا كرم الضيافة فقط، ولكن على الأرجح فإن يسوع ورفاقه قد تعرضوا للكثير من الإهانات وصب اللعنات من قبل السامريين، لأن الفجوة بين اليهود والسامريين كانت عميقة (يو ٤:٩). لم يكن السامري بالنسبة لليهودي سوى كلب. والتعصب المكبوت لدى يعقوب ويوحنا يظهر بالفعل في حادثتين سجلهما لوقا. أولاً، لقد التقيا بشخص غير معروف يستخدم اسم المسيح ليطرد الأرواح الشريرة، من الواضح أنه كان مؤمناً بالمسيح، وكان يحمل الشهادة للمسيح بهذا النمط الرسولي، ولكن

لأنه لم يكن ينتمي لجماعة التلاميذ، وبخه الرسل بصرامة لم يكن لها ما يبررها، على أساس أنه لم يكن واحداً من الاثني عشر.

ولكن يسوع وبخ في الحال عدم تسامحهم المتعجل وروح التحزب لديهم، وأرسى مبدأ يمكن تطبيقه على الكنيسة في كل العصور: «من ليس علينا فهو معنا» وكل من يحاول شفاء المرضى وخلاص النفوس باسمه يجب أن يعتبر كتلميذ وحليف (لو ٩:٤٩،٥٠). إن التحزب المتصلب يمكن أن يسبب قدراً كبيراً من المرارة. ويجب ألا ننسى أن هناك العديد من أشجار الكروم الجيدة التي تنمو وتمد أغصانها فوق الجدار الخارجي للكرمة.

ثم أظهر الأخان اتقاد غضبهما وقوة تحيزهما وعدم منطقية طلبهما المتسم بالعنف والذي يدعو يسوع لكي ينزل ناراً من السماء لتدمر القرية السامرية التي رفضت استقبال يسوع واستقبالهما. إن مثل هذه الروح كانت منفرة ولا يمكن التغاضي عن عيوبها. كانت كلمات يعقوب ويوحنا حادة وهما يطالبان بعقاب أكثر حدة ليحل بالناس لأجل الإهانة الموجهة لربهما.

ولكن يسوع وبخهما بلغة قاسية، مذكراً إياهما بأن روح إيليا ليست هي روح الإنجيل الذي جاء يسوع ليعلنه، أي أن مهمته ليست القضاء على أرواح الناس، بل إنقاذهم. لاشك أن يعقوب نسى تعليم معلمه عن محبة أعدائنا، والإحسان للذين يكرهوننا، والصلاة لأجل الذين يسيئون إلينا. نحن بحاجة، بالطبع، لنحمي أنفسنا من المحبة الزائفة، وألا نسيء إلى الحق بالتسامح مع الشر.

فعلاج الخطأ، لا يكون عن طريق توجيه الاتهامات المدوية، ولا يكون عن طريق نار الحرمان الكنسي. أفضل طريقة للتغلب على الخطأ يكون إعلان الحق، ويجب إعلان الحق بالمحبة (لو ٩:٥١-٥٦). وعلى الرغم أننا لا نستطيع أن نعذر عدم التسامح الكريه وغير المسيحي ليعقوب ويوحنا أخيه، إلا أنه قد يكون هناك لمسة من النبل فيه. ألم يكن من الأفضل أن يثورا في غضب مقدس كما فعلا، بدلاً من أن يشهدا الإهانة الموجهه لسيدهما دون أي انتفاضة أو رجفة يعبران بها عن ألمهما؟ ليت الله يخلصنا في الكنيسة اليوم من اللامبالاة اللاودكية!

الطموح

إن الطموحات النبيلة يجب أن تغرس. وغياب الطموح الحقيقي ينتج عنه غالباً ضعف المستوى. والسمة التي أعلنتها سالومة نيابة عن ابنيها كانت من النوع الخاطيء. يتحدث شكسبير عن «الطموح الخاطيء» وكتب الشاعر أيضاً عن «الطموح المغالي فيه الذي يتخطى حدوده، ليسقط في هوة عميقة».

في رحلته الأخيرة إلى أورشليم، هيأ يسوع عقول رسله لموته ورحيله عنهم. شرح بوضوح أنه سوف يعاني ويموت، ولكنه على أي حال سوف يقوم ثانية. وبينما كانت عقول عدد كبير من التلاميذ مشغولة بفكرة السلطة الزمنية المستقبلية لربهم وملكوته، إلا أن يعقوب ويوحنا، وقد افترضا أن القيامة التي تحدث عنها سوف تكون مؤشراً على سلطته وعظمته، فحثَّا أمهما أن تقدم التماساً نيابة عنهما. ألم يعد أنه عندما يأتي في ملكوته، فإن تلاميذه سوف «يجلسون على اثنى عشر كرسياً، ويدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر» (مت ١٩:٢٨)؟

ولذلك، وقد تجاسرت بفضل ما عمله يسوع لتكريم ابنيها فقد طلبت منه بألفة تتسم بالود، أن يعطي ليعقوب ويوحنا عندما يأتي في ملكوته مركزين متقدمين من مراكز الشرف والكرامة تابعين لمركزه هو شخصياً، الواحد عن يمينه والآخر عن يساره. وفي رد يسوع على الطلبة، وجه إجابته ليعقوب ويوحنا، لأنه كان يعلم أن كل ما عملته

أمهما أنها عبرت عن طموحهما نيابة عنهما. إن روح التنافس الطموح لدى التلميذين دفعتهما إلى حافة خطرة عندما حاول ابنا زبدي أن يتبوأا المراكز المتقدمة في الملكوت المنتظر ربما كانا يغاران من شهرة بطرس وأرادا أن يتأكد أنهما لن يتركا للقيام بدور ثانوي. كم كان هذا الصراع للحصول على المناصب العالمية محزناً لقلب يسوع الذي كان قاب قوسين أو أدنى من صليبه الذي كان من المقرر أن يموت عليه كمجرم! ها نحن نرى اللذين هاجما السامريين، وقد أصبحا يطمحان في الحصول على المنصب، جاعلين من غيرتهما وسيلة لنوال الحظوة لدى المعلم، وها نحن نراهما يقللان من شأنه بتحويله إلى حاكم ظالم بإسناد المناصب على أساس المحسوبية دون اعتبار للكفاءة والاستحقاق.

فضح يسوع الجهل الكامن وراء الخطأ المريع لطلبتهما فقال، بلغة العطف أكثر منه بلغة الافتخار «لستما تعلمان ما تطلبان.» ثم أردف بسؤاله المحرك للمشاعر «أتستطيعان أن تشربا الكأس التي سوف أشربها أنا وأن تصطبغا بالصبغة التي أصطبغ بها أنا»؟ أظهر يسوع بمثل هذا السؤال الموجه بلغة العطف أكثر منه بلغة التوبيخ، أن الطريق الوحيد إلى العرش يمر بالصليب، كما كان على وشك أن يبين في موته القادم، وقيامته ومجده. كان بإمكان يعقوب ويوحنا أن يدخلا ملكوته فقط عن طريق الضيقة العظيمة، والثمن الذي كان عليهما أن يدفعاه للحصول على المركز المرغوب فيه كان يتضمن احتمال التجارب القاسية، والإخلاص له في أقسى الظروف، والإمانة حتى الموت.

سأل يسوع مقدمي الطلبة عما إذا كانا يستطيعان أن يشربا الكأس التي يشربها وأن يصطبغا بالصبغة التي يصطبغ بها، وأن يقدما كل ما يمكنهما من تضحية، فكانت إجابتهما على الفور «نستطيع». وهنا يثور سؤال عما إذا كان هذا الرد الفوري يدل على أن النار المقدسة لروح الشهيد قد اتقدت في روحيهما أم أن الأخوين كانا على استعداد أن يعد بأي شيء طالما كان بإمكانهما الحصول على المكافأة المشتهاة. قال بطرس متظاهراً بالشجاعة «وإن شك الجميع فأنا لا أشك». ولكنه مضى لينكر يسوع ويعلن بقسم أنه لا يعرفه.

نحن نميل للاعتقاد، بأنه بسبب محبة وغيرة هذين الساعيين لكراسي العرش، فأنهما سوف يستجيبان لجميع المطالب، وأنهما، إذا كانا أنانيين في طلبتهما، فقد كانا رائعين في ردهما. ومع أن يسوع وحده عرف كل ما كان متضمناً في مشاركته كأسه، إلا أنه قبل رغبتهما المعلنة في تجرع الكأس المريرة معه، على علاتها. وفيما يتعلق بيعقوب، فعندما رأى معلمه يذهب إلى عرشه عن طريق الصليب، فإن روحه قد استنارت وكنتيجة ليوم الخمسين اختفى تعصبه كما اختفى سعيه الطموح نحو السلطة، وأصبحت غيرته لأجل المسيح أكثر حدة على مدى ١٤ سنة، وخدم الشخص الذي أحبه بقوة وبتكريس ثابت لا يتزعزع. لقد أراد يعقوب تاجاً - وأعطاه المسيح كأساً، وكان يرغب في السلطة وأصبح عبداً ليسوع المسيح، وأراد أن يحكم ولكنه وجد قبر الشهيد.

عندما نتأمل في موضوع استشهاد يعقوب سوف نكتشف كيف أنه عندما ضرب سيف هيرودس «هذا الابن النبيل للرعد» فإنه دخل من الباب اللؤلؤي نحو الرؤية الكاملة، والنور الكامل، وسوف يملك إلى أبد الآبدين (رؤ ٢٢:٣-٥). وقد عرف كيف كانت كلمات ذاك الذي توَّج رأسه قبل أن يتوجها المجد صادقة «من يغلب فسأعطيه أن يجلس معي في عرشي كما غلبت أنا أيضاً وجلست مع أبي في عرشه» (رؤ ٣:٢١).

٦- شهرته

كرسول المحبة، والكاتب لخمسة كتب في العهد الجديد، يبدو أن يوحنا، كان أكثر شهرة من أخيه يعقوب في الأناجيل الثلاثة الأوائل، وأن الترتيب كان ينبغي أن يكون هكذا «يوحنا بن زبدي ويعقوب أخوه» ولكن الحقيقة ليست هكذا! فكلما ذُكر الاثنان معاً يكون الترتيب هكذا «يعقوب بن زبدي ويوحنا أخوه». وهناك سمة ذات دلالة نوعاً ما في إنجيل يوحنا وهي أن يوحنا لا يذكر أخاه بالاسم أبداً. يدعو مرقس الرسول الآخر ليعقوب «يعقوب الصغير» ليفرق بينه وبين يعقوب بن زبدي الذي أصبح يعرف باسم «يعقوب الكبير» وهو تعبير لا صلة له بالحجم أو التفوق، ولكن بالسن فقط، فمن المرجح أن المعنى الدقيق للاصطلاحين هو الأصغر والأكبر بسبب العمر.

في البداية، لنفهم أن يعقوب الذي نحن بصدده لم يكن هو الذي كتب رسالة بهذا الاسم، ولم يكن هو الذي أصبح رئيس مجمع أورشليم. إن يعقوب هذا، وهو ابن زبدي، والذي برز إلى المقدمة بين أصدقائه من الثابت أنه أصبح واحداً من الرسل الثلاثة الذين يُذكر أسماؤهم دائماً هكذا «بطرس، ويعقوب، ويوحنا» قد اختار المعلم هؤلاء الثلاثة لرابطة أوثق، لعلاقة أكثر حميمية، وثقة أكمل، فقد شاركوا المعلم في بعض التجارب العظيمة في خدمته، والتي يبدو أن بقية الرسل قد استُبعدوا منها، ولابد أن هذه الأحداث قد انتجت انطباعات ذات أثر لا يُمحى.

سمح ليعقوب والاثنين الآخرين بالدخول إلى حجرة الموت ليشهدوا أول انتصار للمسيح على الموت بإقامة ابنة يايرس. «لم يدع أحد يتبعه إلا بطرس ويعقوب ويوحنا أخا يعقوب» (مر ٥:٣٧). وبالإضافة الوحيدة لاسم يوحنا والتي ذكرها متى أيضاً (١:١٧)، قد تمثل إحساساً بين الرسل الآخرين، فيما يتعلق بسبب السماح ليوحنا الخجول بالدخول، ومع ذلك فقد كان أعظم شاهد موثوق بشهادته عن معجزة قيامة المعلم. ثم إن شخصيته وتأثير كل من بطرس ويعقوب قد أهلتهما أيضاً ليكونا شاهدين.

وقد كانت هناك أيضاً التجربة الباعثة على الرهبة على الجبل عندما تجلى يسوع أمام بطرس ويعقوب ويوحنا. يقول بطرس عندما كتب عن هذه الحادثة الرائعة أنهم كانوا «معاينين لعظمته» على الجبل المقدس. كان لهم امتياز أن يشاهدوا بريق لاهوته من خلال ثوب بشريته. ولما خلب ألبابهم جلال هذا الإعلان، عبَّروا عن رغبتهم في البقاء هناك إلى الأبد. ولكن رؤيتهم كانت تعدهم للمهمة التي كان يتعين عليهم القيام بها في الوادي أسفل الجبل.

ونحن نلحظ أيضاً الحميمية بين يعقوب ومعلمه في ما كتب عن جثسيماني، لأنه كان واحداً من الثلاثة الذين طلب منهم يسوع أن يصطحبوه إلى ظلال أشجار الزيتون، ليشهد هناك آلامه المبرحة كمقدمة للدخول إلى شركة آلامه. «ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا» (مر ١٤:٣٣). من المرجح أن الآخرين لم يكن بمقدورهم تحمل عبء رؤية آلامه، ولكن ما حدث هو أن الثلاثة المختارين للرؤية والاستماع، قد فشلوا في أن «يسهروا» لأن الرب «وجدهم نياماً، إذ كانت أعينهم ثقيلة»، في الوقت الذي كان يواجه فيه يسوع «ساعة وسلطان الظلمة».

في كل هذه الأحداث الثلاثة، ذكر يعقوب كالثاني بين الثلاثة، لأجل السبب الواضح بأن شخصيته الأقوى حجبت أخيه يوحنا، وبمقارنة الأخوين يبدو أن يعقوب كان موطد العزم وقوياً ونشيطاً.

ويوحنا كان مستغرقاً في التأمل الروحي، يميل للتخمين والحدس، والتفكير الباطني. ترى شهرة يعقوب واضحة كحقيقة مؤكدة، عندما «مد هيردوس الملك يديه ليسيء إلى أناس من الكنيسة» (أع ١٢:١) بعد قيامة ربنا بحوالي ١٤

سنة، ولكنه لم يقبض على الأصغر بين الأعضاء - بل الأكثر بروزاً فقط. لقد قبض على قائدين، يعقوب وبطرس، ولكنه قبض على يعقوب أولاً، لأنه من المرجح أنه كان متفوقاً على بطرس من بعض النواحي. هنا أيضاً، نجد مقارنة بينهما - كانت مواهب بطرس تتعلق بالريادة وتمهيد الطريق، أما مواهب يعقوب فقد خُصِّصت للحفاظ على النتائج.

كان بطرس بارزاً في الخطابة، والدعاية ومواجهة الجماهير، أما يعقوب فقد كان يعرف كيف يؤكد المكاسب وكانت له عبقرية إدارية وتنفيذية.

يعقوب، إذن، كان واحداً من أولئك الذين كانوا يعيشون بالقرب من المسيح، ومازال المسيح يدعو النفوس المخلصة لتدخل في الدائرة المقرَّبة من أصدقائه، وأن يحصلوا على دلائل الحب والثقة غير المعروفة للآخرين. إنهم يستمعون لصوته ويفكرون مثله. إن معظم تلاميذه يبدون قانعين إذا سمح لهم بأن يلمسوا هدب ثوبه، أو إذا كان ذلك دليلاً على الشركة الحميمة بأكثر مما ينبغي، فإنهم يتبعونه من بعيد. فإذا كان يعقوب مقرباً من يسوع أكثر من الآخرين، فلا يرجع ذلك لنوع من المحسوبية، بل يرجع للتفضيل السامي للمعلم. فقد كان يبدو كما لو كان ناموس الانجذاب نحو النقيض قد جعل ابن الرعد عزيزاً على قلب يسوع الذي لم يكن يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته.

٧- استشهاده

كان يعقوب أول من شعر بعداوة هيرودس، وكان التالي لاستفانوس في نوال شرف الاستشهاد في الكنيسة الأولى (أع ١٢:١-٤). وبما أن الموت القاسي ليعقوب سرّ اليهود، فقد قبض هيرودس على بطرس وألقى به في غياهب السجون. وهكذا أصبح عمودي الكنيسة البارزين من ضحايا غيرة هيردوس الجديدة على اليهود. لماذا نال يعقوب شرف الاستشهاد تحت حكم هيردوس، وأُنقذ بطرس من بطشه؟ إن ذلك سر من أسرار ذاك الذي يتصرف بطريقة غامضة ويجري عجائبه.

بعد ١٤ سنة من الشهادة المضنية، أفضل شهادة تسببت في حقد هيرودس وفرح اليهود لموته، ورد نبأ قتل يعقوب وموته كشهيد. فقد انهى سيف الطاغية حياة كانت مكرسة على المذبح، ولكن يعقوب لم يكن يخاف من الذين يستطيعون أن يقتلوا الجسد. كان محاطاً بنعمة الله من كل جانب ولم يستطع الموت أن يفصل الرسول عن «محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا» (رو ٨:٣٧-٣٩). كان يعقوب أول شهيد بين الرسل، وأول من ربح الأكليل، وقد أخذ بفرح تلك الكأس التي قالوا لربهم إنهم على استعداد أن يشربوها.

قد لا يسجل سفر أعمال الرسل كلمة واحدة قالها يعقوب، أو أي عمل أجراه، ولكنه يخبر عن استعداده لكي يقدم كذبيحة لأجل المسيح. إن جسارته الطموحة قد ميزت خدمته ولكنها عجلت بنهايته الملطخة بالدم. وقد دفعه غضبه المقدس وغيرته الملتهبة إلى الصفوف الأولى من مواجهة الخطر وجلب له معمودية الدم في سبيل الحق الذي كان يتحدى دائماً قوة النار والسيف. يعبر دانيل ماكليمن بصورة رائعة عن ذلك فيقول:

«لقد كرس دم يعقوب قضية الحق الإلهي، حتى أن موته كان إيذاناً ببدء حقبة من النشاط المتزايد تتميز بالكثير من الإنجازات.

صمم هيرودس الأول على «ذبح الأطفال الأبرياء». وقطع هيرودس الثاني رأس يوحنا المعمدان وقتل هيردوس الثالث يعقوب. ولكن في كل مرة فشلت المحاولة في سحق خطة الله فشلاً ذريعاً. ثم أن وصمة الدم على بيت هيردوس تنبيء بالمصير النهائي للصراع بين القوة الغاشمة والإيمان

٦- شهرته

كرسول المحبة، والكاتب لخمسة كتب في العهد الجديد، يبدو أن يوحنا، كان أكثر شهرة من أخيه يعقوب في الأناجيل الثلاثة الأوائل، وأن الترتيب كان ينبغي أن يكون هكذا «يوحنا بن زبدي ويعقوب أخوه» ولكن الحقيقة ليست هكذا! فكلما ذُكر الاثنان معاً يكون الترتيب هكذا «يعقوب بن زبدي ويوحنا أخوه». وهناك سمة ذات دلالة نوعاً ما في إنجيل يوحنا وهي أن يوحنا لا يذكر أخاه بالاسم أبداً. يدعو مرقس الرسول الآخر ليعقوب «يعقوب الصغير» ليفرق بينه وبين يعقوب بن زبدي الذي أصبح يعرف باسم «يعقوب الكبير» وهو تعبير لا صلة له بالحجم أو التفوق، ولكن بالسن فقط، فمن المرجح أن المعنى الدقيق للاصطلاحين هو الأصغر والأكبر بسبب العمر.

في البداية، لنفهم أن يعقوب الذي نحن بصدده لم يكن هو الذي كتب رسالة بهذا الاسم، ولم يكن هو الذي أصبح رئيس مجمع أورشليم. إن يعقوب هذا، وهو ابن زبدي، والذي برز إلى المقدمة بين أصدقائه من الثابت أنه أصبح واحداً من الرسل الثلاثة الذين يُذكر أسماؤهم دائماً هكذا «بطرس، ويعقوب، ويوحنا» قد اختار المعلم هؤلاء الثلاثة لرابطة أوثق، لعلاقة أكثر حميمية، وثقة أكمل، فقد شاركوا المعلم في بعض التجارب العظيمة في خدمته، والتي يبدو أن بقية الرسل قد استُبعدوا منها، ولابد أن هذه الأحداث قد انتجت انطباعات ذات أثر لا يُمحى.

سمح ليعقوب والاثنين الآخرين بالدخول إلى حجرة الموت ليشهدوا أول انتصار للمسيح على الموت بإقامة ابنة يايرس. «لم يدع أحد يتبعه إلا بطرس ويعقوب ويوحنا أخا يعقوب» (مر ٥:٣٧). وبالإضافة الوحيدة لاسم يوحنا والتي ذكرها متى أيضاً (١٧:١)، قد تمثل إحساساً بين الرسل الآخرين، فيما يتعلق بسبب السماح ليوحنا الخجول بالدخول، ومع ذلك فقد كان أعظم شاهد موثوق بشهادته عن معجزة قيامة المعلم. ثم إن شخصيته وتأثير كل من بطرس ويعقوب قد أهلتهما أيضاً ليكونا شاهدين.

وقد كانت هناك أيضاً التجربة الباعثة على الرهبة على الجبل عندما تجلى يسوع أمام بطرس ويعقوب ويوحنا. يقول بطرس عندما كتب عن هذه الحادثة الرائعة أنهم كانوا «معاينين لعظمته» على الجبل المقدس. كان لهم امتياز أن يشاهدوا بريق لاهوته من خلال ثوب بشريته. ولما خلب ألبابهم جلال هذا الإعلان، عبَّروا عن رغبتهم في البقاء هناك إلى الأبد. ولكن رؤيتهم كانت تعدهم للمهمة التي كان يتعين عليهم القيام بها في الوادي أسفل الجبل.

ونحن نلحظ أيضاً الحميمية بين يعقوب ومعلمه في ما كتب عن جثسيماني، لأنه كان واحداً من الثلاثة الذين طلب منهم يسوع أن يصطحبوه إلى ظلال أشجار الزيتون، ليشهد هناك آلامه المبرحة كمقدمة للدخول إلى شركة آلامه. «ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا» (مر ١٤:٣٣). من المرجح أن الآخرين لم يكن بمقدورهم تحمل عبء رؤية آلامه، ولكن ما حدث هو أن الثلاثة المختارين للرؤية والاستماع، قد فشلوا في أن «يسهروا» لأن الرب «وجدهم نياماً، إذ كانت أعينهم ثقيلة»، في الوقت الذي كان يواجه فيه يسوع «ساعة وسلطان الظلمة».

في كل هذه الأحداث الثلاثة، ذكر يعقوب كالثاني بين الثلاثة، لأجل السبب الواضح بأن شخصيته الأقوى حجبت أخيه يوحنا، وبمقارنة الأخوين يبدو أن يعقوب كان موطد العزم وقوياً ونشيطاً.

ويوحنا كان مستغرقاً في التأمل الروحي، يميل للتخمين والحدس، والتفكير الباطني. ترى شهرة يعقوب واضحة كحقيقة مؤكدة، عندما «مد هيرودس الملك يديه ليسيء إلى أناس من الكنيسة» (أع ١٢:١) بعد قيامة ربنا بحوالي ١٤

سنة، ولكنه لم يقبض على الأصغر بين الأعضاء - بل الأكثر بروزاً فقط. لقد قبض على قائدين، يعقوب وبطرس، ولكنه قبض على يعقوب أولاً، لأنه من المرجح أنه كان متفوقاً على بطرس من بعض النواحي. هنا أيضاً، نجد مقارنة بينهما - كانت مواهب بطرس تتعلق بالريادة وتمهيد الطريق، أما مواهب يعقوب فقد خُصِّصت للحفاظ على النتائج.

كان بطرس بارزاً في الخطابة، والدعاية ومواجهة الجماهير، أما يعقوب فقد كان يعرف كيف يؤكد المكاسب وكانت له عبقرية إدارية وتنفيذية.

يعقوب، إذن، كان واحداً من أولئك الذين كانوا يعيشون بالقرب من المسيح، ومازال المسيح يدعو النفوس المخلصة لتدخل في الدائرة المقرَّبة من أصدقائه، وأن يحصلوا على دلائل الحب والثقة غير المعروفة للآخرين. إنهم يستمعون لصوته ويفكرون مثله. إن معظم تلاميذه يبدون قانعين إذا سمح لهم بأن يلمسوا هدب ثوبه، أو إذا كان ذلك دليلاً على الشركة الحميمة بأكثر مما ينبغي، فإنهم يتبعونه من بعيد. فإذا كان يعقوب مقرباً من يسوع أكثر من الآخرين، فلا يرجع ذلك لنوع من المحسوبية، بل يرجع للتفضيل السامي للمعلم. فقد كان يبدو كما لو كان ناموس الانجذاب نحو النقيض قد جعل ابن الرعد عزيزاً على قلب يسوع الذي لم يكن يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته.

٧- استشهاده

كان يعقوب أول من شعر بعداوة هيرودس، وكان التالي لاستفانوس في نوال شرف الاستشهاد في الكنيسة الأولى (أع ١٢:١-٤). وبما أن الموت القاسي ليعقوب سرّ اليهود، فقد قبض هيرودس على بطرس وألقى به في غياهب السجون. وهكذا أصبح عمودي الكنيسة البارزين من ضحايا غيرة هيرودس الجديدة على اليهود. لماذا نال يعقوب شرف الاستشهاد تحت حكم هيردوس، وأُنقذ بطرس من بطشه؟ إن ذلك سر من أسرار ذاك الذي يتصرف بطريقة غامضة ويجري عجائبه.

بعد ١٤ سنة من الشهادة المضنية، أفضل شهادة تسببت في حقد هيرودس وفرح اليهود لموته، ورد نبأ قتل يعقوب وموته كشهيد. فقد انهى سيف الطاغية حياة كانت مكرسة على المذبح، ولكن يعقوب لم يكن يخاف من الذين يستطيعون أن يقتلوا الجسد. كان محاطاً بنعمة الله من كل جانب ولم يستطع الموت أن يفصل الرسول عن «محبة الله التي في المسيح يسوع ربنا» (رو ٨:٣٧-٣٩). كان يعقوب أول شهيد بين الرسل، وأول من ربح الأكليل، وقد أخذ بفرح تلك الكأس التي قالوا لربهم إنهم على استعداد أن يشربوها.

قد لا يسجل سفر أعمال الرسل كلمة واحدة قالها يعقوب، أو أي عمل أجراه، ولكنه يخبر عن استعداده لكي يقدم كذبيحة لأجل المسيح. إن جسارته الطموحة قد ميزت خدمته ولكنها عجلت بنهايته الملطخة بالدم. وقد دفعه غضبه المقدس وغيرته الملتهبة إلى الصفوف الأولى من مواجهة الخطر وجلب له معمودية الدم في سبيل الحق الذي كان يتحدى دائماً قوة النار والسيف. يعبر دانيل ماكليمن بصورة رائعة عن ذلك فيقول:

«لقد كرس دم يعقوب قضية الحق الإلهي، حتى أن موته كان إيذاناً ببدء حقبة من النشاط المتزايد تتميز بالكثير من الإنجازات.

صمم هيرودس الأول على «ذبح الأطفال الأبرياء». وقطع هيرودس الثاني رأس يوحنا المعمدان وقتل هيردوس الثالث يعقوب. ولكن في كل مرة فشلت المحاولة في سحق خطة الله فشلاً ذريعاً. ثم أن وصمة الدم على بيت هيردوس تنبيء بالمصير النهائي للصراع بين القوة الغاشمة والإيمان

القوي، وختم دم الصليب عهد النعمة إلى الأبد. وقد أصبح دم الشهداء بذرة الكنيسة».

لما كان يعقوب قد أظهر ولاءً مقدساً لله يدفعه ضمير مستنير روحياً، فإنه قد ارتفع فوق هيرودس وسيفه المغموس في الدم ليلمس وهو في وضع الركبة المنحنية صولجان السماء الملوكي. وهكذا فإنه أصبح في موته أعظم من حياته، لأن سيف الروح قطع سيف هيردوس، وباستشهاد قديسين مثل استفانوس ويعقوب، تم تحرير الرجاء الخالد للإنجيل.

٨- مثاله

يريدنا يعقوب أن نتبعه كما تبع هو سيده، وأن نكتسب التعليم الروحي من كل سجلات العهد الجديد عن حياته وشهادته. ألا يعلمنا أن الشركة مع المسيح تحول العنف إلى قوة، والبحث عن إرضاء الذات إلى تضحية، والبرق إلى نور؟ فقد كانت علاقته الحميمة مع المسيح، وإيمانه بقوته هي التي جعلت من «ابن الرعد» هذا بطلاً، وجعلت من هالة المجد على جبينه تاجاً للانتصار الروحي. إن شخصيته جديرة حقاً بتأملاتنا بروح الصلاة، لأنه أمامنا هنا رجل قوي، وقادر، وكادح، وطموح، ما أن تحرر من وهم كل أحلامه العالمية بشأن دعوى المسيح، حتى نراه يندفع إلى الصف الأمامي بنفس الصفات الطبيعية التي حباه الله إياها، ويترك لنا مثالاً لحياة نكتسب منها الإلهام.

على الرغم أننا قد ذكرنا أن لا يوجد لدينا سجل لأي رسالة نطق بها يعقوب، إلا أن هناك من يقترحون بأنه من المحتمل أن يكون هناك استثناء لذلك في صلاة الشكر المقدمة عندما سجن بطرس ويوحنا لأجل شهادتهما الجسورة وخدمتهما المؤيدة بالمعجزات (أع ٤: ٢٣-٣١). من ياترى صاحب هذه الصلاة الرائعة التي احتفظ بها لوقا لنا؟ هل يمكن أن يكون يعقوب بن زبدي ، هو الذي قاد صلاة الجماعة؟ إن كان الأمر كذلك، فإن هذه الكلمات الرصينة هي الكلمات الوحيدة التي لدينا منه: «أيها السيد أنت هو الإله الصانع السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، القائل بفم داود فتاك لماذا ارتجت الأمم وتفكر الشعوب بالباطل. قامت ملوك الأرض واجتمع الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه. لأنه بالحقيقة اجتمع على فتاك القدوس يسوع الذي مسحته. هيرودس وبيلاطس البنطي مع أمم وشعوب اسرائيل. ليفعلوا كل ما سبقت فعينت يدك ومشورتك أن يكون. والآن يارب انظر إلى تهديداتهم وامنح عبيدك أن يتكلموا بكلامك بكل مجاهرة، بمد يدك للشفاء ولتجر آيات وعجائب باسم فتاك القدوس يسوع».

ألا تردد هذه الصلاة الرائعة صدى روح يعقوب التي تتسم بالتحدي والغيرة والشجاعة؟ وبفحص هذه الطلبة المليئة بروح التحدي نلاحظ هذه السمات:

- كانت مليئة بالاحترام ولكنها كانت تعبر عن ثقة مقدسة وجسارة.
- كانت تتضمن أنه من المسلم به أن تهديدات المجمع سوف لا يكون لها أي أثر على إسكات أصوات سجيني الإيمان، بطرس ويوحنا.
- تبرز بحق أن قوة الله في قلوبهم، هي وحدها التي تستطيع أن تحفظهم ثابتين غير متزعزين.
- تستخدم نبوة العهد القديم بحرية للحديث عن المسيح وعن أعدائه.
- ترى يد الله في كل ما يعملوه، كرسل، وفي كل ما يعانون منه.
- تركز بثقة وحب على الاسم المتكرر مرتين «فتاك القدوس يسوع».

إن كانت هذه الصلاة بحق صادرة من فم يعقوب، إذن فهي تعد نافذة لنا. امتياز أن نطل منها على مدى القوة

والرقة الممتزجتين في نفس هذا القديس، الذي لم يكن يخشى أحداً سوى الله. يقول الدكتور ج. إلدر إننا يمكن أن نركز على الملامح الآتية:

١- المحبة العميقة والشركة الحقيقية بين يعقوب ومعلمه، والمشهود لها كثيراً من قبل كل الأناجيل، نرى هنا أيضاً «تلميذاً أحبه يسوع». كان حضور هذا الرجل عزاء وكان تعاطفه نعمة، لرجل الأوجاع. فإن لم يكن يتميز بشيء أكثر من ذلك، فعلينا أن نحبه لأجل ذلك ونكون من الشاكرين له.

٢- ها هو رجل قدم تضحية عظيمة، عن طيب خاطر، لأجل يسوع المسيح، فإنه مثل بقية الرسل، ترك كل شيء الأب والأم، والعائلة والأصدقاء - ليتبعه. ربما ترك يعقوب شيئاً أكثر من جميعهم - عائلة أكثر سعادة ووظيفة أسهل، أبا ذا نفوذ، وأما محبة. لا شيء سوى الاقتناع العميق في داخل نفسه كان يمكن أن يجعله يترك هذه الأشياء، لا شيء سوى الإيمان الصادق يجعله يفعل ذلك. والرجال الذين لا يتحدثون كثيراً عن أنفسهم ليسوا أقلهم اهتماماً بالمشاعر أو الألم.

٤- وها هو أيضاً شخص تغيرت شخصيته تحت تأثير يسوع المسيح. في البداية كان الأخان يدعيان بوانرجس - الصاخبان، الغيوران، اللذان كانا يزمجران ضد شرور العصر، ويهاجمان المرائين الذين كانوا في مراكز مرموقة. ونحن نرى لمحة مشابهة عن يعقوب عندما يحاول أن يصب اللعنات والنار من السماء على أولئك الذين يرفضون معلمه. ولكنه لا يظل دائماً هكذا، فنراه يتغير ببطء إلى رجل مسالم وهادىء. فالشركة مع المسيح قد جعلته هكذا. لقد مكنته من السيطرة على طبعه، وأصبح قادراً على أن يلجم لسانه. وأصبح قلبه هادئاً بداخله، دون أن يطلب الانتقام. لقد تعلم من يسوع المسيح أن يكون وديعاً ومتواضع القلب. لقد وجد الراحة. هل يمكننا أن نشهد لمثل هذا التغيير؟

٤- وها هنا أيضاً رجل الصلاة الذي يمسك بالله، عالماً أمانته، ويستريح واثقاً من الحب الذي يكنه لنا. فعندما صعدت صلاة الرسل إلى السماء من فم هذا الرجل، فإنها قد أُظهرت مقدار الإجلال الذي يكنه لله، ومقدار الصلة الوثيقة به، والمعرفة القوية بسر الرب، ومقدار جسارة القدوم بثقة إلى قدوس القدوسين!

«ولما صلوا تزعزع المكان الذي كانوا مجتمعين فيه» (أع ٤:٣١).

٥- نرى هنا، مرة أخرى، رجلاً واجه احتمال الاستشهاد عدة سنوات، ولم يهرب، وعندما جاء أخيراً، التقى به ومضى دون أن ينبس ببنت شفة. فلو كانت هناك شهادة مائتة، أو خوف، أو صرخة، ألم يكن من الواجب التنويه عن ذلك؟ ليس هناك كلمة واحدة. إنه يشرب كأس المعلم حتى الثمالة، ويتبعه، ليكون معه حيث يكون، على الضفة الأخرى.

٦- ويبدو واضحاً أيضاً أنه لم يكن هناك بحث عن الشهرة، أو القوة، ولم يكن هناك حب للصيت، أو الرغبة أن يكون الأول في هذه السنوات الأخيرة. كان راضياً بأن يكون واحداً من التلاميذ. وعندما أصبح كل من صديقه القديم بطرس، وأخوه الأصغر يوحنا، أمامه - أكثر شهرة وكرامة - لا نجد أي احتجاج أو اعتراض. لم يكن هناك أي نوع من التذمر. فأن يتبع يسوع ويكون معه، فهذا فيه كل الكفاية، أين تعلم ذلك؟ أين يجب أن تتعلم أنت وأنا، وكل البشر المساكين الخطاة، نفس هذه الدروس؟ ذلك بلا شك عند قدمي يسوع!